كلام

فى القراءة والقراءآت

للدكتور أحمد فريد رفاعي

مدير المطبوعات الاسبق

... وهكذا أبى صديقنا الدكتور احمد فريد رفاعى ، الذى ذهبنا اليه لنحدثه فى موضوع من موضوعاته الممتعة، الا أن يضن علينا بموضوع معين ، ولكننا أبينا الا أن نستخلص منه آراء لها قيمتها ونفاستها ... وازقال عنها الدكتور فى آخر حديثه المتع انها « كلام» ...! وانها لكلام حقاً ، ولكن له معناه وله مرماه ؟ المحرر

قال الدكتور :

صدقنى يا صديقى أنى فى حيرة ما بعدها حيرة ، وفى ارتباك ما بعده ارتباك ، فلست أدرى فيم أحدثك اليوم ؛ فازحالة مصر - التى تعلمها كما يعلمها سواك ، والتى ينبض لها عرقك ، ويدق لها ناقوس قلبك، كما يقول زملاؤكم الشعراء - تقتطع منا جميعاً،فى مغداتنا ومراحتنا،جماع تفكيرنا ... فهل أحدثك عنها ؟ ... طبعاً : لا! وأنت آسف حزين، لأن مجلتك، وإن كانت سياسية ، إلا أنك قد وقفتها على العلم ، وخدمة البحوث العلمية ، وفيها متسع وأى متسع، فى ميدانها المراح الطلق، لكل تجوال ولكل ميدان .

ولكنك ، وأنت الدقيق الملاحظة ، الثاقب البصيرة ، لا تشك فى أنا - معشر المشتغلين بالتاريخ والأدب ، وما إلى التاريخ والأدب - لا نستطيع أن نكون مكتوفى الأيدى إزاء البلد وحقوق البلد ... ولكنك ستقول لى مقالة (مازينى) - أحد الأقطاب الثلاثة فى تحرير إيطاليا - فى موقف كموقفنا، وقد حزبهم الأمر، واستحكمت الحلقات ، واشتدت بهم حلكة الجو السياسى اكفهراراً ... وصاح به الجميع : «لقد أهمل ولاة أمورنا ما عليهم من تبعات قدسية للوطن المفدى» ؛ فهتف بهم (مازينى) بلهجته الحارة الأنفاس، الملتهبة الحماس: «مواطنى! مالى أملى عليكم بواجباتكم ، ولا أملى عليكم بحقوقكم ... أفمن رعاية للحقوق ؟ ألا فلتعيشوا اليوم فى كنف القيام بالواجب ...!

أفهم أنك ستقول : ليقم كل منا بواجبه ، ليقم الزارع بالسهر على إنماء تربته ، وليقم الصانع بالاتقان فى صناعته ، وليقم التاجر بترعية ماله ، وليقم المهندس باتقان فنه ، وليقم الطبيب بالاخلاص فى معالجته، وليقم المدره بالدفاع عن قضيته ... وليقم الكاتب بارشاد أمته، وليقم الخطيب باسماعها ببلاغته ، وليقم الزعيم باحيائها بقيادته ...

ولست أزعم أنك أخطأت المرمى، ولكننى أزعم أنك لم تصب سدرة الصواب ولباب الحق...

فقاطعنا صديقنا الدكتور ... وقلنا : ولكنك مع هذا كله ـ وأنت فى وسط آلاف مجلداتك ، وكلها نعم الحدث والسمير ـ لا تبخل علينا بالتحدث عن رأيك فى القراءة ، وبماذا تنصح فيها ، وعن خير المؤلفات والمؤلفين ؛ ولعل هذا موضوع طريف قد ترتاح إليه ، ولا سيما وقد رضيت لنفسك فى هذه الأيام، أن تعتزل بهؤلاء المحدثين الأمناء عن الاخوان والأصدقاء ... فقال هازئاً :

وهل من الميسور يا صاحبى أن تجد جو الهدوء الفلسفى الكامل ، والنصفة العلمية الهادئة فى الكتب وعند أصحاب الكتب ؛ وأنت بالكتب وأصحابها جد خبير؟ وهل تظن أن الألفة الحقة البريئة ضاربة بجرانها بين جهابذة الأقلام، وشيوخ العلوم، وقادة الأفكار ـ قديماً وحديثاً ـ أيضاً؟ ألا يجوز أن تقول، وأنت غير مغرق ولا مبالغ: إنهم فى حرب ضروس هم الآخرون؛ فهذا يعيب ذلك وينعى عليه جموده وجدبه، والآخر يهاجم زميله وينكر عليه بيانه وفضله، حتى إنك لتتوهم أن العلم وقف واحتكار ... صدقنى يا صديقى ! لقد صعب على كثيراً ـ وأنا آخذ بوضع كتابى «عصر المأمون» ـ أن استخلص الحق الصراح عن الوزن الصحيح فى كل ناحية من نواحيه ؛ فللمؤرخ الشيعى منهجه ، وللأموى رأيه ، وللمعتزلى تصويره ، وللعباسى نظره ، وهكذا دواليك ... لكل وجهة هو موليها . . . فالتطاحن بين المؤلفين والكاتبين ، وبين الشعراء والخطباء ، هو هو بعينه كالتطاحن بين الأحزاب السياسية ، وصحافتها ، ووزرائها . ولا يقعن بخلدك ياصاحبى أن العرب وحدهم قد وقعوا فى ذلك الشراك : شراك الجلاد والطعان، والسخيمة والاضطغان ، بل شراك اللدد والخصومة ، شراك الحرب والكفاح ، فانى قد لاقيت نفس الصعوبة وأنا آخذ بكتابة «الشخصيات البارزة» ، بل لماذا أذهب بك بعيداً ، فانى بالأمس فقط كنت أقرأ فى (أميل لودويج) عن (جيته) نابغة الألمان، لمناسبة العيد المئينى لوفاته ، وأنا من أنصار (جيته) ، ومن المنتفعين بأدبه الذى لا يبارى ، وأنا من المعجبين بعقله الفذ الجبار ، ومع إكبارى لمساعدته الأدباء جميعاً، فقد ألفيته أحياناً فى مصانعة كاذبة الود، شديدة التماس مع (شيلر) مثلا ، وهو زميله فى العبقرية والنبوغ ، وشريكه فى القيادة العقلية، وصنوه فى الثروة الأدبية، وتربه فى الزعامة الانتاجية فى الأدب الألمانى ...!

وكم يذكرنى ذلك كله بالحديث الممتع الذى حدثنا به عمر بن يوسف، وقد حضر مجلس أبى عبادة ثابت بن يحيى يوما فى منزله وعنده جماعة من الكتاب ، فذكر ما عليه من ملائم الأخلاق، ومدانس الأفعال، فوصف تقاطعهم عند الاحتياج، وعدم تعاطفهم عند الاختلال، وزجرهم فى المواصلة فقال : «معاشر الكتاب ! لا أعلم أهل صناعة أملأ لقلوب العامة منكم ، ولا النعم على قوم أظهر منها عليكم ، ثم إنكم فى غاية التقاطع عند الاحتياج ، وفى ذروة الزهد فى التعاطف عند الاختلال ؛ وإنه ليبلغنى أن رجلا من القصابين يكون فى سوقه؛ فيتلف

ما فى يديه ، فيخلى له القصابون سوقهم يوما ، ويجعلون له أرباحهم فيكون بربحها منفرداً ، وبالبيع منفرداً، فيسدون بذلك خلته، ويجبرون منه كسرته ... وإنكم لتتناكرون عند الاجتماع والتعارف ، تناكر الضباب والسلاحف ، مع استحواذكم على صناعتكم، وقلة ملابسة أهل الصناعات لها معكم، ولم أر صناعة من الصنائع إلا وقد يجمع أهلها غيرها إليها فيعاونونها جميعاً، ويزلون لضروب التجارات معاً، إلا صناعتكم هذه ، فإن التعاطى لها منكم ، والتسمى بها من نظرائكم ، لا يليق به ملابسة سواها ، ولا يتساغ له التشاغل بغيرها ، ثم كأنكم أولاد علات وضرائر أمهات ؛ فى عداوة بعضكم بعضاً، وحنق بعضكم على بعض؛ أف لكم ولأخلاقكم !»

« إن للكتاب طبائع لئيمة ، ولولا ذلك لم يكن سائر أهل التجارات والمكاسب بنظرائهم بررة ، ومن ورائهم لهم حفظة ، وأنتم لأشكالكم مقلون ، ولأهل صناعتكم قالون ؛ قبح الله الذى يقول : قضينا فى الأمن بالأغلب ، وعرفنا علل الناس فى تكاسبهم وتعاملهم ، فمن كانت علته أكرم، كان كرم فعاله أعم ، ولست أعلم علة فى مكتسب أنبل عند الخاصة من مكسبكم ... اه ».

ليس معنى هذا يا صديقى أنى لا أشدو بمنتجات العقليات الخصبة فى الثقافة الانسانية العامة ، ولست بمنكر أثرها فى الحضارات والمدنيات ، ولكنى سائلك فقط : ما قولك دام فضلك فى زراية الكتاب بعضهم بعضاً؟ وما قولك فى هذا التصوير الصادق، وأى كاتب أفضل لك ، وأى مؤلف أختار؟ وما قولك فى أخلاق العصر إذا كان هذا إجماع من تقدم فما تقدم كما تقدم؟!

فقلنا للدكتور: الحق أنه تعجبنا منك تلك الروح اللاذعة أحياناً، مع إعجابنا بهذا السحر الحلال، ولا نزال ننتظر رأيك فى القراءة والقراءآت، ووجهة نظرك فيما يفيد وينفع؛ فقال :

إن أردت الثقافة العامة فنحن ـ بحمد الله ـ فقراء فيها ، ولا يحمد على المكروه سواه ؛ وإن أردت القراءة من حيث هى، فلعلها تابعة لأصناف الكتب وأوضاعها ؛ والكتب ـ كما تعلم ـ ثلاثة أنواع: للدرس ، وللفلسفة، وللزينة ؛ ولا تقل إن نفسيتى الآن هائجة، أو متمردة غاضبة، أو أنها متبرمة ساخطة ، فلذلك أصور لك بالمنظار الأسود ، ولا تقل إنى أتهكم أو أتهانف ! كلا يا سيدى ... وإنما هكذا يسميها النقاد من جهابذة الغرب ، وهكذا يسميها الدكتور (لمان أبوت) فى سلسلة القراءة البديعة التى أصدرتها دار (نلسون وبلوداى بنيويورك) .

ولعلك سائلى عن ماهية تلك السلسلة، فأقول لك فى إيجاز واختصار: إنها الصورة المصغرة الكاملة لنوع الثقافة العامة التى يعنى بها الغربيون عامة والامريكيون خاصة فى سواء فراغهم؛ ولك أن تعتبرها فى النوع الثانى من القراءات الخاصة بالتسلية؛ ولكنك إذا أحببت أن تكون منصفاً فى مقاييسك العلمية ، ومقتصداً فى تعابيرك اللفظية ، فانك ـ لا محالة ـ معتبر ذلك النوع

الثانى من قراءآت التسلية ، بالنسبة للغرب وعلم الغرب ، فى مرتبة النوع الأول من القراءآت بالنسبة لمصر وعلم مصر ، وإذا قلت مصر ، قلت الشرق ، لأن مصر فى طليعة الشرق.

ما علينا من التحدث فى النسبة والتناسب ، وما علينا من اختلاف المقاييس والمعايير والموازين لمعدات الأمم، وقابلية معدات الأمم ، وضرورة التمشى مع نظام التدرج الطبيعى فى العلوم والمعارف وفى التغذية والنماء ؛ ولنتحدث هنيهة عن تلك السلسلة المطبوعة بشكل كتب جيبية ، والتى كانت نيتى - قبل حادث الجامعة الأخير - أن أستعين بالجهبذ النقادة المثقف صديق الحياة (الدكتور طه حسين)، فى إخراج نوع من القراءآت السهلة التناول لعشرة من قادة الأدب القديم من كتاب وشعراء : كالجاحظ ، وابن المقفع ، وعبد الحميد الكاتب ، وجرير ، والفرزدق ، والأخطل ، وابن أبى ربيعة ، وأبى نواس ، وهلم جراً ؛ وكانت النية متوجهة أن نعتبر هذه العشرة كتب كنواة للثقافة العامة ، ونطبعها بشكل جيبى للتسلية إن شئت ، وللدرس إن شئت ؛ ولكن ما ذا أقول فى مشجعات مصر ، وجو مصر ، وتأييد المسئولين عن الحركة العلمية فى مصر ...؟

وخير لنا أن نرجع بحديثنا إلى تلك السلسلة الامريكية فأقول لك : إنها بمثابة مختارات يومية منتظمة القدر لقراءآت متنوعة ، وضرورية للثقافة العامة بالنسبة للآداب الغربية ؛ ولنذكر لك قراءة أسبوع واحد ... وليكن الأسبوع الأول من شهر يناير مثلا :

ففى اليوم الأول منه هذه المختارات : قواعد للسلوك لفرانكلن ، وقطعة من «لنجفلو»، وأخرى لبريانت ، ورابعة من «لاول» .

وفى اليوم الثانى: باب الاعتماد على النفس لأرنولد ، وثانية لآدمس ، وثالثة لتوماس.

وفى اليوم الثالث : قطعة لتوماس سالفينى ، وثانية له أيضاً ، وثالثة للروائى الانجليزى النابه « ثاكرى » .

وفى اليوم الرابع : لثاكرى .

وفى اليوم الخامس : لرسكن، وسفت مارك .

وفى اليوم السادس : شاكسبير ، ومسنجر ، وامرسن ، وثاكرى .

وفى اليوم السابع : لادسن ، وسبنسر ... الخ

ولعلك تلاحظ أنه بينما يختار لقراءة اليوم الرابع كاتباً فقط ، إذ به يختار أربعة فى اليوم السادس، وهذا يفسر لك أن للقدر ومتانته، واتصال معناه ومبناه ، وروحه وفكره ، الحكم الأول ، وذلك تحاشياً للاقتضاب المخل بالمعنى ، أو الاكثار الممل بنفسية القارىء .

فهل لك يا سيدى أن تروج لهذا النوع من القراءة ؟! وليس معنى هذا أنى عدو للروايات أو غيرها ، أو خصم لقصة : عنتر ، وأبى زيد الهلالى ، أو سيدنا يوسف ، أو قصص جحا ؛

ونوادر أبى نواس ... الخ، كلا! ولكنى من دعاة القراءة التى ترفع مستوى الشعب، وذوقه، وتفكيره، ونظره إلى الحياة، وتكاليفها، ومسئولياتها، ومهمة المرء فيها؛ وأظننى لا أعدو الحق الذى يعلمه المطلعون على تاريخ تلك القصص إذا قلت : إنها ألفت لتلهية الشعب وتشتته عما يشغله، دون النظر فى الأمور الجسام فى الدولة ... وإنه لتراث لا يفخر به كثيراً، فيما أعتقد؛ وأظننى لا أعدو الحق أيضاً، إذا مازعمت أنها ليست من نوع (الميثلوجيات) والأساطير، ولا من نوع الروايات المثقفة، العالية الأدب، والاسلوب، والمعنى، والغاية التى وضعها: شكسبير، أو دانتى، أو ملتون، أو تاكرى، أو فيكتور هيجو، أو جيته، أو شلر، أو دكنس، أو غيرهم من شيوخ الأدب الغربى قديماً وحديثاً.

ستقول لى: عندنا (مجانى الأدب)، فأقول لك لابأس به، ولابأس بمختارات القوم فى (الثالث والثانى)، ولا بأس بمجهودهم القيم فى الدواوين التى أخرجوها، وكتب المطالعة التى وضعوها؛ ولكن القوم يعلمون جيداً أنها خطوة فى البداية، بل أنهم فى الخطوة الأولى من البداية، وأن البداية لم توضع بعد.

على أننى أود أن أسألك أنا الآخر، وأود منك الصراحة والجرأة، وقد عهدناها فيك.

فقلنا : تفضل يا دكتور؛ على أن لا نجيب نحن، لأنا نريد الوقوف على رأيك فى هذا الموضوع الجليل الشأن، والذى له أهميته وخطورته، فقال :

لاخطورة ولا أهمية لشىء الآن، فكل شىء تافه فى الميدان المصرى...! سؤالى يامولانا هو : ماذا قرأت من الكتب المدرسية العربية أثناء دراستك الثانوية مثلا، ودعنا من الدراسة الأولية والابتدائية...؟ ولست بسائلك عن الجامعة وقراءآتك فى الجامعة ولا عن قراءآتك الخاصة.

قلنا: قرأنا كتاب (كليلة ودمنة) و(أدب الدنيا والدين)، هذا إلى كتاب (أدبيات اللغة العربية).

قال: ولست بسائلك إن كنت قد رسبت عاما أو لم ترسب، لأنك ـ كما أعرف ـ من العصاميين بكل ما فى الكلمة من معنى، ومن النبهاء الأذكياء، وإن كان النبهاء الأذكياء هم الذين يرسبون فى العادة فى مدارس مصر، ونظام تعليم مصر ...! ثم ماذا قرأت من الكتب الأجنبية ؟

فقلنا : كثيراً، وفى كل سنة كتابين أو ثلاثة، عدا الروايات؛ وهذه الكتب تختلف سنة بعد سنة؛ يعنى مر فى أيدينا فوق الثلاثين كتاباً لثلاثين مؤلفاً من خيرة المؤلفين.

فقال: أى أنك فى دراستك هذه قد علمت شيئاً كثيراً عن: شكسبير، وتاكرى، ودكنس، وهاجرد، وجيبون، وماكولى، واديسون، وباكون، وبزول، والعشرات غيرهم الذين هم فى هذه المرتبة العالية ... وبعبارة أدق : إنك قد كونت لنفسك عن الأدب الانجليزى مثلا صورة، إن لم تكن صحيحة تماما، فانها قريبة من الصحة والكمال.

حسن جداً يا صديقى، لقد قلت الحق تماماً، وكنت نعم الأمين فى الرواية عن تاريخك

الدرامى القديم ، ولكن تعال يا صديق ، قارن بين ما قرأت فى لغتك الأصلية ، لغة الاباء والأجداد ، وبين ما قرأت فى لغة من اللغات الأجنبية ، ثم حدثنى بالموازنة وأثرها من نفسك ، وبالمقارنة ونتيجتها من عقلك ...!

وهنالك وجهة أخرى خاصة بطريقة القوم فى نشر الكتب ، وأنواع دور الكتب ، والمكتبات المتنقلة ، ومئات دور النشر ، والاذاعة ، والتوزيع ، وعدد القراء ، وحفظ العلماء ، وعدم عوز الأدباء ؛ وهذه موضوعات يتطلب كل منها بحثاً وتحليلا ؛ ثم إن عندك مناهج التعليم هنا وهناك ، والمباراة التأليفية هنا وهناك ، وعدم استقرار السياسة التعليمية من استقرارها هنا وهناك ، وصلة المدارس بالحكومة وعدم صلتها ، والتدخل الحكومى فى التعليم من عدمه ، ومبلغ تقدم فنون التربية والبيداجوجيا والبسيكلوجيا ، والأخلاق أو عدمه هنا وهناك ، بل لعلك تذكر أن هنالك جماعة متصلة بجمعية الأمم ، مهمتها : إذاعة أسماء أشهر المؤلفات العالمية ذات الخطر والقيمة ، والنفع والافادة ، التى تصدر كل سنة ، فكأنها بمثابة لجنة اختبار أو جماعة دعاية أدبية علمية عالمية ، ثم هنالك المنتديات العلمية للبحوث الفلسفية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتاريخية والجغرافية ، ولها نشراتها وكتبها ومحاضراتها ، ومؤلفات جهابذتها ؛ ولا تنس المبرات التى تنالها تلك المعاهد من أصحاب الأموال ، ولا تنس أنك تستطيع أن تشترى ، بلا شىء ولا ثمن ، مجلداً جميل الشكل ، أخاذ المنظر والورق ، للكتاب المقدس أو لبعض الكتب الدينية والأخلاقية وغيرها ، بفضل إمدادات الجمعيات لأصحاب تلك المشاريع .

وما لنا نذهب بعيداً ، وها هو ذا مشروعك القيم الذى تمخض عن « المعرفة » التى ساهمت بأكبر نصيب فى الثقافة ، وشهد بتفوقها : العلماء ، والأدباء ، فخبرنى عن نصيب اشتراك وزارة المعارف فيها ...! وقد اشتركت جهرة من المعاهد والجامعات الشرقية والغربية ، وأولاها الجامعة المصرية فيها ؟

لم تشترك وزارة المعارف فى مجلتك ، وإن كان أكثر الكتاب فيها من مفتشى الوزارة ، وكبار أساتذتها ، ومدرسيها ، أليس ذلك كافياً للدلالة على عدم التشجيع فى مصر ؟ ومع ذلك كله ؛ فنحن لا نطمع فى كل هذا ؛ وإنما أطماعنا فى غاية التواضع ...

فقاطعنا الدكتور وقلنا له : لعل للوزارة عذراً وأنت تلوم ، وياحبذا لو تفضلت بالافضاء بتلك الأطماع ، فى العدد القادم ، وليكن موضوعنا : ماذا تفعل لو كنت وزيراً للمعارف ؟

فقال صديقنا الدكتور : هذا كلام ياصديق ، كذلك حديثى معك الآن عن القراءة والقراءآت ، فهو فى نظرى ونظر إخواننا المشتغلين بالعلوم والآداب كلام فى كلام ، ولعلنا فى عصر الكلام ، والسلام...